حركات الإصلاح بين المسيحية والإسلام: المسارات والمآلات

Christian-Islamic reform movements: Tracks and Results

أ. سفيان حامدي

جامعة قفصة تونس

Soufien.hamdi11@gmail.com



حركات الإصلاح بين المسيحية والإسلام: المسارات والمآلات

أ. سفيان حامدي

الملخّص:

تتّجه الهمّة في هذا البحث نحو التطرّق إلى موضوع له من الأهميّة ما يجعل منه مجال نظر وتحقيق، ولأنّ الأمم لا يمكن لها أن تحيا دون تاريخها، بل لعلّه كما قيل "تاريخ كلّ أمة خطّ متّصل قد يصعد أو يهبط، وقد يدور حول نفسه أو ينحني ولكنه لا ينقطع"، كان حريّا بنا التّوقف على عتبات بعض التّجارب الدّينيّة بما هي أحد أهمّ العناصر المكوّنة لهذا التّاريخ، بل ونمعن النّظر بالتّجوال الأكاديمي من خلال الخوض في كواليس بعضها حتى يكتمل المشهد الإخراجي في تصوّر كلّ باحث علمي أو ناشد للحقيقة ولو بشكل جزئي.

ونخصّ بالذكر تجربتي الإصلاح الدّيني والحراك الإصلاحي التّجديدي الفكري ما بين المسيحيّة والإسلام وآثار كلّ منهما في توجيه تاريخ الدّيانتين وذلك من خلال تفحّص التّجربة البروتستانتيّة ودورها في الإصلاح خلال العصور المظلمة التي عايشتها أوروبا في القرون الوسطى. حيث نشبت الكنيسة الكاثوليكيّة مخالبها، وبسطت أجنحة فسادها واستبدادها بفرض سيطرتها على الشّعوب والملوك، حيث تلبّدت أحوال البلاد واكفهر الأفق وتنوعت الأغلبية الشّعبيّة إلى محبط أو مرتاب أو جائع على صورة جاهل، فلم يعد ما يؤلّف بين الفاعلين إلا الحنين العاصف إلى العدالة ليكون هذا الخليط السّوداوي دافعا لميلاد تيّار إصلاحي ديني مثّل الحدث الأهم في تاربخ أوروبا آنذاك.

ولترجح كفّة الميزان البحثي لابد من تقليب النّظر في التّجربة الإصلاحيّة التّجديديّة التي عايشها العالم الإسلامي بقيادة ثلّة من علماء الأمة الأفذاذ بغية كشف الحُجب عن كلّ ما يعيق مسار الفكر والدّين، وسحق كلّ الشّوائب والبدع التي أسدلت ذات عهد بسبب الرّكود الفكريّ والجمود التدبري، وبعض الساسة الذين مثلوا دور النّجاسة على الدّين بامتياز، فكان ذلك الحراك بمثابة نهضة روحيّة إيمانية وفكريّة علميّة جددت مواثيق الثّنائيّات العلائقيّة العموديّة- ما بين الإنسان وربه- والأفقيّة-ما بين المجتمعات بعضها البعض- على حد السواء، بل ووطّدت الصّلة بالمبادئ السّامية والمقاصد العليا التي

انبنت عليها العقيدة النقيّة بأصولها وفروعها من خلال استحضار المفاهيم الإسلاميّة السمحاء لهدف إبعاد الزّيف والتّحريف والأباطيل عنها.

ولكي يستوفي البحث شروطه الأكاديميّة، لابد من التّعريج على النّتائج التي خلصنا إلها في كلّ من التجربتين، إذ لا يمكن ذكر المسارات دون المآلات والتّداعيات.

الكلمات المفاتيح: الإصلاح الدّيني، التّجديد الفكريّ، البروتستانتيّة، الإسلام، المسيحيّة...

Abstract:

The focus of This research Is on a topic that is important to make it an area of consideration and realization, and because nations cannot live without history, but rather because of their history.

"The history of every connected line nation may go up or down, and it may go around or bend, but it does not break. "We should have stopped on the doorsteps of some of the religious experiences in what is one of the most important components of this history and even considered academic wanderings by going into the scenes of some of them until the exegetical scene is complete in the perception of every scholar, or in part, who appeals to the truth. In particular, we note the experiences of religious reform and the intellectual reform movement between Christianity and Islam and their implications for guiding the history of both religions by examining the Protestant experience and its role in reform during the dark ages of medieval Europe, where the Catholic Church has created its claws and simplified its corruption and tyranny by imposing its control over peoples and kings.

Keywords: Christian-Islamic reform, movements, Tracks and results

1- تمهيد:

عند طرح موضوع الإصلاح الدّيني في المسيحيّة أو التّجديد الفكري في الإسلام، فإنّ ذلك غالبا ما يُلمح بسراح العقل من أثقال اللحظة، ومثبّطات التّقدم والرّقي ونقد الذّات، وخلق تساؤلات وجوديّة جوهريّة تنحو منحى الغوص في عمق الأمور وتجاوز الكائن بالتّطلع إلى ما سيكون. والناّظر إلى تلك الابتلاءات التي منيت بها رسالات السّماء مقابل تلك الملاحم الأرضيّة، له أن يتيقّن من حقيقة إثبات عدم استقرار الأديان بين الأمم وازدهارها وعودتها إلى سالف عهدها بتحقيق مقاصدها التي تنزّلت لأجلها، بعد هوانها في القلوب، حتى أنّها فقدت ما كانت تتمتّع به من ميزة المرونة فصارت لا تتلاءم وخصوصيّات كل عصر، مما أفرز ثلة من المصلحين الأفذاذ، الذين كان لابد لهم من الظّهور حينا بعد حين نتاجا لكلّ ما سلف من الدّوافع متعقّبين المآلات، ناشدين المجد في كلّ خطاهم.

ومن هنا، كان تاريخ المسيحيّة والإسلام شاهدًا على قيام حركاتٍ إصلاحيّةٍ انبثق من رحمها رجال مخلصون في كلّ جيل يرنون إلى إصلاح ما فسد، واحياء ما اندثر.

فاشتهرت في تاريخ المسيحيّة حركة بروتستانتيّة قامت لتردّ الناس إلى الدّين الصّحيح، بالمقابل شهد التّاريخ الإسلامي حركات إصلاحيّة تجديديّة انتفضت لتحيي مفاهيم الدّين في القلوب، فتردّ الناس إلى العقيدة النّقيّة الخالية من الشّوائب والبدع.

2- المبحث الأول: حركة الإصلاح الديني في المسيحية:

هيمنت الكنيسة خلال القرون الوسطى في العالم الغربي على جميع وجوه الحياة، وبلغ الأمر حدودا بعيدة في الطغيان واستغلال "المؤمنين". وكان احتكارها للحقيقة والإيمان مصدر تلك الهيمنة وهذا الطغيان. فبرزت الحاجة إلى ظهور حركة إصلاحية تحرّر الناس والدّول من سلطة رجال الدّين.

2-1- المطلب الأول: طغيان الكنيسة في العصور الوسطى وبروز الحاجة إلى الإصلاح:

تجسدت هيمنة الكنيسة في مجالات رئيسيّة ثلاثة. وهي مجالات ذات أهمّية بالغة، ونعني بها: الدّيني والمعرفي والسياسي.

2-1-1 الطغيان الديني:

أضحت البابويّة بحلول العصور الوسطى مؤسّسة عالميّة قاسية، ازداد نيرها ثقلا بصورة لا تطاق، وإنّنا لنجد بين الباباوات من كانت له اتّجاهاته البعيدة عن الدّعوة الإيمانيّة، بل وربّما المقاومة والمعاداة للرّوح الدّينية، فالإسكندر السّادس كان "عاتيا في الإثم" ويوليوس الثّاني كان سياسيًّا مقاتلاً جبارًا أكثر منه راعيًا للنّفوس، أمّا البابا ليون العاشر فقد كان اهتمامه منصبًّا على إحياء العلوم الوثنيّة والفنّ القديم أكثر من اهتمامه بالدّين، حتى أنّه كان يشكّك في تاريخيّة الأناجيل وسلامتها أ.

¹- عزت، زكي، تاريخ المسيحية في عصر الإصلاح، د ط ، دار الجيل للطباعة، مصر، د ت، ص8.

ولا غرابة أنّ يسير الكرادلة والرهبان وسائر قطيع الأكليروس في ركاب رؤساءهم، فالدّارس لأحوال الكنيسة في العصور المظلمة تعتريه الدّهشة لكثرة ما يتراءى له من الدّعاوى والقضايا المرفوعة ضدّ رجال الدّين لفساد أخلاقهم وسوء تصرّفاتهم، فإذا كان ما يتصوّره الشّعب في رجل الدّين النّزوع إلى جلال القدس الأعلى، والتّطهر الرّوحي من كلّ رجس وشهوة، فإنّ الواقع آنذاك يروي تصوّرا مضادًا، حيث أنّ رجال الكنيسة قد انغمسوا في الشّهوات وارتكبوا الموبقات واستغلّوا سلطانهم الدّيني، فكان هؤلاء الوسطاء أشدّ البّلايا خطورة على الدّين وعلى المجتمع الأوروبي 1.

لا ربب أنّ الفساد قد طغى على حياة الأكليروس بسبب الثّروة والجهل، وصارت عارا على الدّين وامتهانًا شنيعًا للياقة والآداب، حتى أنّ جُلَ المؤرّخين من كاثوليك وبروتستانت قد أجمعوا على أنّ الكنائس والأديرة أصبحت أوكارا للفجور والفسق باعتياد رجال روما اقتراف الآثام والتّ، جاوزات فما عادوا أكثر حرصا على الدّين من غيرهم.

إضافة إلى ما أنف ذكره، لعب المال دورا هاما في الارتقاء التراتبي في الوظائف اللاّهوتيّة الكنسيّة، فالمادّة والسّلطة كانتا المقياس الحقيقيّ لتولّي تلك المناصب بدلا من الاختصاص العلميّ والكفاءة، وهو ما أسهم في انتشار السّمعة السّيّئة لرجال الدّين حينئذٍ، فقد عُرف عن الكثير من الباباوات أنّهم اشتروا طريقهم إلى البابوية في ظلّ انتشار ما يعرف بظاهرة السّيمونية، وانخرطوا في بيع صكوك الغفران².

هكذا، رفض رجال روما الامتثال لمقياس شريعة الله ولمبادئ المسيحيّة الرّاقية، وصاغوا قوانين تتناسب ورغباتهم وعزموا على إرغام النّاس للامتثال لها، فأنتجوا مآزق الشّعوب الأوروبيّة، وصنعوا أرهب المآسي، وزيّن لهم الشّيطان أعمالهم فما كان للرّحمة أن تجد سبيلا إلى قلوبهم. فتلك الرّغبة التي سبقتهم في صلب المسيح وتقتيل الرّسل، وتلك الرّوح التي حرّكت نيرون المتعطش لسفك الدّماء، قد تجدّدتا في كاثوليكيّة العصور المظلمة ولكن تحت لحاف آخر، لحاف كنيسة روما.

2-1-2 الطغيان المعرفي:

أسدل الظّلام ثوبه على مجتمعات أوروبًا في العصور الوسطى بانتشار الجهل المريب، فأضحى الفكر خاملا، والبحث العلمي راكدا نتيجة التّعصب الكنسيّ المقيت والتّرمّت البغيض.

فنصّب رجال الدّين أنفسهم مصادر للمعرفة دون غيرهم، فالحقيقة المطلقة عندهم هي ما صدر عنهم دون غيرهم. وأيّ نشاط عدا نشاطهم يُعَدُّ في نظرهم نشاطا وقحا³.

واحتكرت الكنيسة تفسير ما جاء في الكتاب المقدّس واستبدّت بذلك أيّما استبداد، حيث كانت تأمر وتنهى وما على الرعيّة سوى الامتثال، سواء وافق ذلك العقل أم خالفه.

2- هيلين إيليربي، الجانب المظلم في التاريخ المسيحي، ت: سهيل زكار، دط، دار قتيبة، 2005 ص 64

3- هربرت جورج ولز، معالم تاريخ الإنسانية م 3 ت: جاويد عبد العزيز توفيق، ط3، لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1975، ص 905.

¹⁻ شلبي رؤوف، أضواء على المسيحية، دط، المكتبة العصرية، 1975، ص 130.

وعلى المسيحي إذا لم يستسغ قولاً أصدرته أو مبدأ دينيًّا أعلنته، ترويض عقله على تقبله، فإن لم يستطع، فعليه أن يشكّ في العقل ولا يشكّ في البابا، لأن البابا خليفة لسلسلة الخلافة.

وكانت الكنيسة بغطرسة رجالها في تلك العصور قد سلكت سبيل القهر والعنف والتسلط في مواجهة العلماء بتجريمها لكل رأى مخالف لها.

وإستتبع ذلك تجريم الأبحاث الطبيعيّة العلميّة، فتمّ إصدار مقالات تكفير ضدّ كلّ عالم خالف معارفها، معتبرة أنّ قمّة الضّلال هي البحث عن الحقيقة خارج الكتاب المقدّس¹.

أضحى بينًا أنّه في خضم اتساع الهوّة بين ما هو دينيّ وما هو عقليّ، وفي ظلّ الخيبات المتتالية التي عرفتها الكنيسة في مواجهة النّظريات العلميّة، ولضعف حجّتها، تمّ الالتجاء من قبلها في أغلب الأحيان إلى العنف وقمع أصحاب تلك النّظريّات.

2-1-2 الطّغيان السّياسي:

اشتهرت عصور الطّغيان تلك بصراعات بين قوّتي الدّين والإمبراطوريّة، وكانت الكنيسة الطّرف الأقوى فيها، حيث اعتمدت أسلحتها الرّوحية من قرارات حرمان ولعنة، ونجحت في وضع تشريعاتٍ على مقاس مصالح قادتها من أجل إحكام السّيطرة على السّلطة.

ولا يعوزنا الاستشهاد على ذلك من التّاريخ الأوروبي، فالأمثلة فيه كثيرة، ولعلّ أهمّها ما أصدره البابا جريجوري من مرسوم يقتضي القطع مع التّقليد العلمانيّ أو النّظام السّابق الذي كان يقوم فيه الحكام بتعيين رجال الدّين من كهنة وأساقفة، وبالتّالى جعل الخاتم والصولجان في يد البابا².

بناء على ما سبق، نستنتج أنّه رغم مقولة المسيح الشّهيرة «أعطوا ما لقيصر لقيصر، وما لله لله» 3، إلا أنّ موازين حقوق قيصر والرّب قد اختلّت في تلك العصور، وفقا لممثّلهما في الدّنيا، وبالرّغم من أنَ هذه الجملة مرجع عظيم لما يجب أن تكون عليه علاقة السّلطة الرّوحيّة بالسّلطة الزمنيّة، فإنّ هذا لم يحدث، فالكثير من قيادات الكنيسة قد كنّوا عداوة وضغينة تجاه أباطرة وملوك أوروبا، ولعبوا دورا سياسيًّا خارج صلاحيّاتهم الرّوحيّة.

ولا ربب في أنّ النّصر ظلّ حليف الكنيسة طيلة عصور الظّلام، بسبب سلطتها الرّوحية البالغة وهيئتها التّنظيميّة الدّقيقة وطغيانها المطلق، ولطالما تولى رجال روما تتويج الأباطرة، بالإضافة إلى تمتّعهم بصلاحيّة خلع من يشاؤون وعزلهم بمحض إرادتهم، ولم يكن باستطاعة أحد التحرّر من ذلك، أو رفض الرّضوخ لحكمهم خشية أن تحلّ عليه اللّعنة والحرمان.

(130)

¹⁻ زيغريد هونكة، شمس العرب تسطع على الغرب، ت: فاروق بيضون وكمال الدسوقي، ط8، دار الجيل بيروت، 1993م، ص361. 2- كابان عبد الكريم علي؛ الإصلاح الديني في المسيحية مقارنة بالإصلاح الفكري في الإسلام، ط1، دار دجلة، 2010، ص56. 3- مرقس (12 -17)

2-2- المطلب الثاني: روّاد حركة الإصلاح وأهم آرائهم الإصلاحية:

عرف ق 16 ظهور عدد من المصلحين توزّعوا بين مختلف أصقاع القارّة الأوروبيّة. وقد اشتهر منهم ثلاثة: الألماني مارتن لوثر والسويسري أورليخ زوينجلي والفرنسي جون كالفن.

2-2-1- مارتن لوثر:

وهو أحد رجال الله الأتقياء، الذين دافعوا عن إيمانهم بشجاعة وثبات في سبيل المحافظة على كلمة الله الحيّة ونقائها، ويعتبر زعيم حركة الإصلاح الدّيني.

وقد حصل لوثر على قسط وافر من التّعليم العالي حيث درس القانون والبلاغة والفلسفة واللّهوت والموسيقى، وتحصل على درجة الدّكتوراه في العلوم اللاهوتيّة من جامعة "وتنبر" الألمانيّة، وامتهن التّعليم، فكان أستاذًا ناجحًا استطاع أن يكسب محبّة زملائه وتلاميذه 1.

وفي سنة 1511م زار "لوثر" روما لأسباب تتعلّق بأمور الرّهبنة، إلا أنّ هذه الزّيارة لم تترك أثرا حسنا في نفسه، بسبب حياة البذخ والتّرف التي وجد عليها رجال الدّين هناك، وآلمه الجهل الرّوحي السّائد بين أوساط العامّة من النّاس².

وفي تلك الفترة، كانت فكرة الإصلاح تراود "ليو" كلّ حين فصار يعتقد أنّ الإنسان بلغ درجة من الفساد يمتنع معها إرضاء الخالق بالأعمال المعهودة في العبادة، وكلّ ما يستطيع فعله هو النّدم والتّوبة الدّاخليّة الخالصة، والإيمان برحمة الله وغفرانه فهو السّبيل الأوحد للخلاص من الخطيئة.

وفي سنة 1517 م حدث ما رفع لوثر بغتة بين الأنظار، عندما أراد البابا ليو العاشر (1513-1521م) إكمال كنيسة "القديس بطرس" فقام بإرسال الراهب "تنزل" إلى ألمانيا لتوزيع صكوك الغفران بقصد جمع المال مما أثار مارتن لوثر، واعتبر أنّ هذا التّصرف لا يتماشى وتصوّرات الدّين المسيحيّ³.

عارض لوثر هذا الصّنيع بشدّة في خمس وتسعين مادة علّقها على باب كنيسة "ويتنبرغ" في صبيحة يوم 31 أكتوبر 1517م، معلنًا فها تنافي هذا العمل مع مقاصد الرّسالة المسيحيّة ودعا من شاء المناقشة في الموضوع⁴.

من الجليّ أنّ لوثر كان على يقين بأنّ الحاجة إلى الإصلاح صارت ماسّة، وأنّه من العبث انتظار الباباوات والأساقفة للقيام بهذا العمل، ما دفعه للالتجاء إلى السّيف الزمني المتمثّل في الأمراء والنبلاء، ساعيًا إلى مخاطبة ضمائرهم من أجل تحميسهم على الذّود عن حرمة ما تبقّى من الدّيانة المسيحيّة في تلك الفترة. ويبدو أنّه نجح في ذلك إلى حدّ ما، ففكرة الإصلاح باتت تراود أمراء ألمانيا.

3- كابان عبد الكريم على، الإصلاح الديني في المسيحية مقارنة بالإصلاح الفكري في الإسلام، مرجع سابق، ص94.

¹⁻ مارتن لوثر ، أصول التعليم المسيحي ، المركز اللوثري للخدمات الدينية في الشرق الأوسط ، بيروت ، لبنان ، 1983م ، ص6.

²⁻ المرجع نفسه، ص 6.

^{4 -} برون جفري: تاريخ أوروبا الحديث، ت: علي المرزوقي، ط1، الأهلية للنشر والتوزيع، (د ت)، ص185.

في الثّامن عشر من فيفري 1546م، توفّي قائد الحركة الإصلاحيّة "مارتن لوثر" في مقاطعة مانسفيلد مباشرة إثر وفاة ابنته "لينش" في الثالثة عشر من عمرها¹.

في المنزل الذي ولد فيه وعن عمر يناهز 63 سنة نطق لوثر بآخر عباراته "إنّنا جميعا شحّاذون... هذه هي الحقيقة" (الإحالة).

ومن أهمّ الأفكار التي دعا إلها مارتن لوثر؛ التّسليم بأنّه لا سبيل إلى الخلاص البشريّ من الخطيئة والعقاب إلاّ عن طريق الإيمان المطلق بالمسيح.

كان هذا المبدأ هو الضّياء الذي أنار طريق الحياة أمامه، فصار يعتبر أنّ الغفران الذي يطلبه الإنسان لا يحصل إلاّ بالإيمان المطلق بيسوع المسيح، وأنّ قبول الله لهذا الإيمان كواسطة للخلاص، هو نعمة ورحمة من الله، فإنّ الله ليس مُلزما بأن يقدّم الخلاص إلى الإنسان لمجرّد إيمانه، ولكن بحسب رحمته الواسعة، ارتضى أن يقبل الإيمان كوسيلة للخلاص².

يبدو أنّ مارتن لوثر لم يهتمّ بشكل العبادة قدر اهتمامه بجوهرها وروحها، معتبرًا أنّ الله روح الذين يسجدون له، وبالتّالي وجّه فكره نحو العبادة الرّوحية التي قوامها الإيمان الصّادق النّقيّ.

كما رفض مبدأ التوسّط بين الخالق والمخلوق حيث انتقلت هذه الفكرة إلى دعوة ثوريّة تسعى إلى تجريد رجال الدّين من كلّ سلطاتهم.

يقول ويل ديورانت: «وأعظم مادّة ثوريّة في لاهوت لوثر هي تجريد القسّيس من منصبه، وإباحته للقساوسة الحصول على راتب لا بصفتهم وسطاء مختصين بين الله وبين النّاس، ولكن بصفتهم خادمين اختارتهم كلّ كنيسة للوفاء بحاجاتها الرّوحيّة» 3.

ينتزع ديورانت السلطة هاهنا من رجال الدين، ويجعلهم مثل بقيّة العلمانيين، معتبرا أنّ أعمالهم لم تكن بمقتضى سلطتهم أو قداستهم، بل من باب الخدمة لإخوانهم، وأنّ الإنسان ليس في حاجة إليهم لاستطاعته القيام بذلك بنفسه.

2-2-2 أورليخ زوينجلي:

ولد أورليخ في غرّة جانفي 1484م إثر ميلاد لوثر بسبعة أسابيع بقرية خاملة الذكر على ضفاف بحيرة "زبورخ" تدعى "فلدهاس"، وهو الابن الثّالث، وله أربعة إخوة وأخت⁴.

¹⁻ كابان عبد الكريم على؛ الإصلاح الديني في المسيحية مقارنة بالإصلاح الفكري في الإسلام، مرجع سابق، ص 100.

 $^{2^-}$ فايز فارس، أضواء على الإصلاح الإنجيلي، ط1، دار الثقافة المسيحية، دت، ص50-51.

 $^{5^{-}}$ ويل ديورانت، قصة الحضارة، ت: محمد بدران، ط1، دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع، دت، ص58.

⁴⁻Aimé Humber ; Ulrich Zwingli Et Son Époque, Lausanne, imprimerie et librairie de Marc Ducloux 1844, p:1

تلقّى زوينجلي تعليمًا ثريًّا، امتد من بداية الفلسفة اللاّهوتيّة للعصر الوسيط إلى أحدث فلسفات النّزعة الإنسانيّة، ليتحصّل على درجة الماجستير وهو في مقتبل عقده الثالث، وتعلم العبريّة لغة العهد القديم، واليونانية ليقرأ العهد الجديد بلغته الأصليّة.

في سنة 1513م، تعيّن أورليخ قسّيسا مجنّدًا مرافقًا الجنود المؤجّرة. وقد تزامن ذلك مع ما شهدته سويسرا من اضطرابات سياسيّة بسبب تهديد ملك فرنسا "فرانسوا الأوّل" وتوعّده بالانتقام من البابا "ليو العاشر"، إثر تحالفه مع الإمبراطور "شارل الخامس"، ما أجّج فتيل الخوف بأعماق البابا بسبب ما تلقاه من التهديدات الفرنسية، فأرسل طلباً إلى سويسرا لغرض تدعيمه بالجنود والمساعدات اللازمة لصدّ أيّ عدوان فرنسي محتمل. فكان زوينجلي من ضمن الذين أُرسِلوا، إلا أنّ السويسريين خسروا الحرب أمام الجيوش الفرنسيّة، ومُني جيشهم بهزيمة ساحقة في ما يُعرف بمذبحة "ماريني انو" سنة 1516م1.

أثّرت تلك الواقعة في زوينجلي أيّما تأثير، حيث اقتنع باستغلال الكنيسة للسويسريين، فأعلن معارضته للتّجنيد الإجباري -ما يعرف بنظام الجنود المرتزقة-، كما ولّد ذلك داخله الرغبة في خوض تجربة الإصلاح الدّيني عبر التّنديد بمساوئ الكنيسة الكاثوليكيّة، والحدّ من سلطات البابا.

وفي مقابل ما بدأه زوينجلي من تحطيم لقيود الجهالة والخرافات، كانت الكنيسة الكاثوليكيّة تعمل جاهدة من أجل لفّ الناس في أكفان الجهل والزّيادة من متانة تلك القيود، وحين نهض زوينجلي ليقدم الغفران والنّور إلى الشعب بدم المسيح كانت بضاعة الغفران الكاثوليكيّة على أعتاب سويسرا المسيحيّة.

أصبح لزوينجلي أتباع كثيرون، ممّا أدّى إلى حدوث انقسام في المقاطعات السّويسريّة بين البروتستانت والكاثوليك³.

فطلب البابا من أهالي زوريخ أن يتركوا التّعاليم الجديدة، لكن هؤلاء أعلنوا استقلالهم التّام عن البابوية. حيث اشتعلت نيران الثّورة في جميع أنحاء سويسرا سنة 1525م، فيما عدا خمس مقاطعات مطلّة على جبال الألب حيث ظلّت كاثوليكيّة "4.

وفي الخامس عشر من ماي ،1531 اجتمع مجلس في زيوريخ قصد إكراه المقاطعات الكاثوليكيّة على فتح المجال لممارسة الوعظ، والتّبشير البروتستانيّ على أرضها، ولمّا رفضت تلك المقاطعات تمّ إعلان الحرب بين الطّرفين.

وفي أكتوبر سنة 1521، عبرت الجيوش الكاثوليكيّة الحاشدة حدود "كابيل"، وهزموا البروتستانت في معركة كانت أعظم خسارة فيها هي مصرع بطل الإصلاح في سويسرا في لحظة تاريخيّة، وهو يردّد كلماته المشهورة "ماذا يهمّ؟ إن هم يقتلون الجسد، لكن هم لا يستطيعون أن يقتلوا الروح"⁵.

¹⁻ جون لوريمر، تاريخ الكنيسة ج4، ت؛ عزرا مرجان، ط 1، دار الثقافة، القاهرة، ص140.

²⁻عزت زكى، تاريخ المسيحية في عصرا لإصلاح، مرجع سابق، ص92.

³⁻ اهوايت إلن، الصراع العظيم، ت: إسحاق فرج، ط3، دار الشرق الأوسط للطباعة والنشر، لبنان، 1997. ص159.

⁴⁻ كابان عبد الكريم علي، الإصلاح الديني في المسيحية مقارنة بالإصلاح الفكري في الإسلام، مرجع سابق، ص 104.

⁵ عزت زكى، تاريخ المسيحية في عصر الإصلاح، مرجع سابق، ص 108.

وفي مجابهة غير متكافئة مات أحد أكثر الرّجال تأثيرًا في تاريخ أوروبّا، تاركا آثارًا ومبادئ إصلاحيّة خلّدتها الذّاكرة الإنسانيّة، وساهمت إلى حدّ كبير في توجيه التّاريخ الأوروبّي.

كانت التّعاليم التي نادى بها زوينجلي مشابهة إلى حد بعيد لتعاليم مارتن لوثر، حيث وعظ مصلح زيوريخ بتعاليم المسيح، فكانت أخلاق المسيح غالبة على تصرّفاته، وكان في وقت واحد مسيحيًّا حقيقيًّا، ومنفتحًا على الموروث القديم 1.

قد يرى البعض أنّ أنصار زوينجلي يغالون في وصف مدى تطابق مواعظه مع تعاليم الإنجيل، إلاّ أنّ المتتبّع لتاريخ ذلك العصر يرى جليًّا أنّ أقواله كان لها من الصّدى الشيء الكبير على نفوس الجماهير السّويسرية المتعطّشة لروح الإصلاح، ذلك أنّ هذا الأسلوب الجديد المازج بين جرأة المصلح وسماحة المؤمن المحبّ لتعاليم المسيح، أنتج لغةً أثّرت تأثيرًا عميقًا في النّفوس بما يصعب تصويره أو وصفه.

أمّا في ما يتعلّق بمسألة الخلاص التي أثقلت كاهل المؤمنين عبر العصور، فإنّ زوينجلي كان يحمل كلمات التّعزية أو ما اعتبره مبرل دوبينياه سبيل خلاص الإنسان، حيث يذهب إلى أنّ المسيح هو العلاج الفعّال والسّبيل الأوحد لبثّ الحياة الحقيقيّة في الإنسان، منتصرا إلى فكرة أنّ المسيح الإله قد فدا الإنسانية فداءً لا ينتهي إلى الأبد، ويقول في هذا الصدد: "حيثما وجدت الخطيئة فهناك الموت لا محالة وأمّا المسيح فكان بدون خطيئة ولا في فمه غشّ ومع ذلك مات واحتمل هذا الموت عنّا وارتضى أن يموت لكى يردّنا إلى الحياة. وبما أنّه لم تكن له خطايا شخصيّة فقد وضع الأب الرحيم خطايانا عليه 2.

2-2- جون كالفن:

ولد جون كالفن في مدينة نويون الفرنسية ذات الطابع الكنسيّ بتاريخ 10 يوليو من سنة 1509م³.

استهل "كالفن" حياته الجامعية بدراسة القانون في جامعة أورليانز Orléans نزولا عند رغبة أبيه، حيث أنّ رجال القانون في تلك الفترة كانوا يتمتّعون بدخل مرموق، بالإضافة إلى أنّ هذا الاختصاص مرتبط عن قرب باللاّهوت الذي هو "سيد العلوم" وكعادته كان "جون الابن" متميّزا بنباهته وفطنته، حيث أشهر بين أسوار الجامعة بسرعة تحصيله للمعارف وتلقينها 4.

لا شكّ في أنّ الفرصة كانت سانحة بالنّسبة إلى المصلح الفرنسيّ أثناء دراسته في "أورليانز" ليتّصل بالذين تأثّروا ب "لوثر"، وبتعمق في دراسة تاريخ الكنيسة وسير رجالها.

ومباشرة، إثر حصوله على الإجازة في القانون استقرّ جون كالفن " في باريس ليس لمقاطعة مسيرته التّعليميّة بل لإثرائها بجامعة "السّاربون" الفرنسيّة، حيث كرّس كلّ جهده لدراسة اللاّتينيّة واليونانيّة، ثم

¹⁻ ميرل دوبينياه، تاريخ الإصلاح في القرن السادس عشر، مج 1، بيروت، 1878، ص597.

²⁻ المرجع نفسه، ص 616.

³⁻ F. Paux: la vie de Calvin, Bibliothèque cantonale et universitaire de Lausanne, 1960, P :1

⁴⁻ جون لوريمر، تاريخ الكنيسة، ج 4، مرجع سابق، ص 200.

تعرّف إثر ذلك على العديد من الأصدقاء والأساتذة لعلّ أبرزهم "نيكولاس كوب" الذي ساعده كثيرا على نحت اسمه في دراسات العلوم الإنسانيّة 1.

وخلال تواجده بباريس تعدّدت الأسباب التي حالت دون بقائه في تلك المدينة، حيث أثيرت قضيّة الإعلانات التي قامت بها مجموعة من المتطرّفين البروتستانت بلصقها على جدران بعض المدن الكبرى ومنها باريس، وقد أعلنوا بأنّ خدمة القداس كانت انتهاكا مربعا لا يُحتمل ويتعارض مع العقيدة الإلهيّة.

عندئذ صدر مرسوم ملكي ضدّ اللوثريين، وتمّ اضطهاد البروتستانت فغادر كالفن فرنسا في نهاية سنة 1534م ليستقرّ في بازل بسودسرا².

كما أنّ جون كالفن كان قد تمّ اتهامه بأنّه من حرّر الخطاب الافتتاحي لعيد "جميع القسيسين الذي ألقاه صديقه "نيكولا كوب" والذي غلب عليه الطابع اللوثريّ وهو ما لفت الأنظار إليه فصار محلّ مضايقات وأصبحت فكرة الرّحيل تراوده منذ تلك الحادثة 3.

وبحسب مرويّات تواريخ الأفكار، فإنّ كالفن أضحى قائدا بروتستانتيًّا ومناصرا لفكر لوثر مذ تلك السّنة.

في السّابع والعشرين من مايو لعام 1564م، حضرت جون كالفن الوفاة إثر صراع طويل مع المرض، وترك للإنسانيّة موروثا فكربا ظلّت تتوارثه الأجيال جيل بعد جيل⁴.

أما عن أهم أفكاره الإصلاحية، فقد رفع جون كالفن شعار "الكتاب المقدّس وحده"، فكان يرى أنّ هذا الكتاب هو الذي يخبر النّاس عن وجود الله المحبّ المعتني بعباده، والذي فداهم في يسوع المسيح. ومن دون الكتاب المقدّس لا يمكن للإنسان أن تتجلّى أمامه مثل هذه الحقائق العظيمة 5.

واضح أنّ الكتاب المقدّس أضحى في نظر كالفن هو المصدر الوحيد الموثوق به الذي يتأسّس عليه الإيمان المسيحيّ، وتستمدّ منه الأشياء قيمتها، بما في ذلك الكنيسة.

وقد تناول كالفن هو الآخر مسألة الخلاص بالتّحقيق، فكان يرى أنّ المسيح هو الوسيط الوحيد بين العبد وربّه، فإذا كانت النّفس البشريّة لا تخلو من النّقص والميل إلى ارتكاب الخطايا والانسياق وراء الشّهوات، فإن إيمان الإنسان بالمسيح "ربًّا وإنسانًا" هو الوسيلة الوحيدة لتخليصه من هذه الخطايا، وتطهير النفس التي دنّستها كثرة الذّنوب.

_

¹⁻ George Tourn, Jean Calvin, Le réformateur de Genève, traduit Jacques Lasserre, édition Olivetan, p20.

²⁻ كابان عبد الكريم على، الإصلاح الديني في المسيحية مقارنة بالإصلاح الفكري في الإسلام، مرجع سابق، ص 109.

^{3 -} الوائلي عامر عبد زيد، الإصلاح الديني، قراءة المفهوم في التجربة المسيحية الغربية، ط1، المركز الإسلامي للدراسات الإستراتيجية، 2018، ص 90

⁴⁻ ويل ديورانت، قصة الحضارة، ت. محمد بدران، ط1، دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع، دت، ص 255.

^{5 -} جون لوريمر، تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص 153.

وتكمن خطورة هذه العقيدة في الحقيقة في أنّها تلغي أيّ أثرٍ أو دورٍ للأعمال فيما يسمّى عندهم بعمليّة التّبرير من الخطيئة.

2-3- المطلب الثالث: أهم نتائج حركة الإصلاح الديني في المسيحية:

أثارت الأفكار الإصلاحية الجديدة نقاشات لاهوتية صاخبة. وأثارت معارك وحروبا. وأسفرت في النهاية، عن نتائج عديدة متنوّعة، كان لها صدى واسع في أوروبّا، ودشّنت عصرا جديدا مختلفا تمام الاختلاف عمّا قبله. وهو ما يعدّ قطيعة مع العصور الوسطى في التاريخ الغربي.

2-3-1- الحروب الدّينيّة:

ساهمت حركة الإصلاح البروتستانيّ في مقتبل العصر الحديث في تفكيك الوحدة الدّينيّة بالعالم الغربيّ، وهو ما أدّى إلى اندلاع سلسلة من الحروب، بلغت ذروتها في القرنين السّادس عشر والسّابع عشر. ولئن تسربلت تلك الحروب في غالب أمرها بزيّ القداسة والدّين، إلاّ أنّها قد وُجِّهت سياسيًّا من أجل تحقيق مصالح الملوك والأباطرة.

ورغم انخراط أغلب الدول الأوروبية في تلك الصّراعات، فإنّ ألمانيا وفرنسا حظيتا بالنّصيب الأوفر من العنف الدّيني.

2-3-2 إعادة الاعتبار للعنصر اليهودي:

كانت المبادئ البروتستانتية التي وضعتها حركة الإصلاح الدّيني في القرن السّادس عشر مغايرة تماما للمبادئ الكاثوليكيّة السّابقة. وقد وصفت هذه الحركة بأنّها "بعث عِبْرِيّ" أو "يهودي" تولّدت عنه أبعاد نظريّة جديدة تجاه الماضي والحاضر اليهوديّ، وكذا مستقبله بشكل خاص.

كما تكمن أهميّة حركة الإصلاح كذلك في تمهيدها الطّريق للأفكار الصهيونيّة إزاء الأمة الهودية والبعث الهوديّ، وكون فلسطين وطنا للهود حيث لقيت رواجا فيما بعد. وقد رسّخت الصّهيونيّة المسيحيّة في القرن السّادس عشر حين أصبحت المعتقدات الدّينية الهوديّة جزءا من طقوس الكنيسة 1.

2-3-2 تحرر الفكر من رقابة الكنيسة:

سلكت المعرفة العلميّة سبلا جديدة إبّان الحركة الإصلاحيّة، ففي حين كان النّاس في الماضي موقنون بمسلمات كثيرة استنادا إلى سلطة الكنيسة، أصبح الاتّجاه الجديد هو الاقتداء بالعلماء. كما أنّ البروتستانتيّة قد طرحت في الميدان الدّيني الفكرة القائلة إنّ كلّ شخص ينبغي أن يتصرّف حسب تقديره الشّخصي. ومنه، فقد أصبح من واجب الناّس أن يتطلّعوا إلى الطّبيعة بأنفسهم، بدلاً من أن يضعوا ثقتهم العمياء في أقوال أولئك الذين كانوا يدافعون عن النّظريات البالية².

¹⁻ ريجينا الشريف، الصهيونية غير اليهودية، جذورها في التاريخ الغربي، ت: أحمد عبد الله عبد العزيز، عالم المعرفة، 1985، ص 35.

²⁻ بيرتراند رسل، حكمة الغرب، ج2، ت. فؤاد زكريا، د ط، عالم المعرفة، الكويت، 1983م، ص108.

عموما، أقامت الكنيسة قبل الإصلاح حواجز تعارض كل ما يبدو مهددا لنزاهة العقيدة البابوية والمعارف والعلوم الخارجة عن الأطر الكنسية. وبقيام الثورة البروتستانتية لاحت بوادر رفع الرقابة الدينية على الإبداع الفكري والبحث العلمي، وهذا ما أثبته السياق التاريخي للتطور العلمي، حيث بقي العلم راكدًا منذ النصف الثاني من القرن السابع عشر في البلدان الكاثوليكية، وتقدم بخطوات ثابتة في البلاد البروتستانتية 1.

يبدو أنّ العقل العلمي قد بُعث من مرقده، واستفاق الإنسان من غفلته، بل من سباته محطّما أغلال الفكر الكنسيّ السّائدة طوال العصور الوسطى، مطلقا عنان فكره، متحرّرا من كلّ ما يكبّله مستطلعًا أسرار الطّبيعة محاولاً اكتشاف أوجه الحياة بعيدًا عن كلّ رقابة بابوية، باحثًا عن ذاته بعد سنين التّيه والعدم الفكريّ.

2-3-2 حرية الضمير:

تقول إلن هوايت "قد تحقق كلام الوحي القائل" فَتْحُ كلامِك يُنيرُ، يُعقّل الجُهّالَ"²، وقد أحدثت دراسة كلمة الله تعبيرًا عظيمًا في عقول الشّعب وقلوبهم. وإذ كان الحكم البابوي قد وضع نيرا من حديد على أعناق رعاياه فأبقاهم في حالة الجهل والانحطاط، وإذا كان الناس يمارسون الطقوس بتدقيق خرافي، فإن القلب والعقل لم يكونا يشتركان في تلك الممارسات إلا بقدر ضئيل. وحين قدّمت تعاليم البروتستانت إلى الشّعب حقائق كلمة الله الواضحة، ثمّ وضعت تلك الكلمة في متناول الشّعب، فإنّ ذلك أيقظ قواهم الهاجعة، ولم يكتف بأن طهر طبيعتهم الرّوحيّة ورفع من قدرها، ولكنه أيضا منح عقولهم قوّة ونشاطًا جديدين 3.

وبتحريره، بات الضمير مع البروتستانت الدّافع إلى تحقيق المصلحة العامَة، وتمثيل الأنا تمثيلاً اجتماعيًّا وسياسيًّا وثقافيًّا قائمًا أوّلاً وأساسًا على مفهوم جديدٍ للحريّة.

2-3-2 الاهتمام باللغات الكلاسيكية:

من خلال استقراء الدراسات البحثيّة تبيّن أنّه في زمن الإصلاح ظهر الاهتمام باللّغات الكلاسيكيّة، لما لها من أهميّة في قراءة الكتاب المقدّس. ومن ناحية أخرى، ساهم البروتستانت الأوائل في ردّ الاعتبار للغات المحليّة التي تطوّرت استعمالاتها أدبيًا، وجاوزت حدودها بفضل كتابات المصلحين كلّ بلغته، وترجمتهم للأناجيل بلغات شعوبهم، حتى ذاع صيت تلك التّراجم، وانتشرت في جميع أصقاع أوروبا4.

بشكل مجمل، أثمرت ترجمات الأناجيل والوعظ بلغة الشّعب استبدال اللاتينية باللغات الوطنيّة والآداب التي واكبت الحركة القومية والتي سايرت هزيمة كنيسة روما.

3- الن هوايت، الصراع العظيم، مرجع سابق، ص 215.

(137)

-

¹⁻ جورج مينوا: الكنيسة والعلم؛ تاريخ الصراع بين العقل الديني والعقل العلمي، ت: موريس جلال، ط 1، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، سوريا، 2005م، ص541.

²⁻ المرجع نفسه، (130-119)

⁴⁻ أبو حطب محمد خالد، مارتن لوثر والإسلام، ط1، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر، ص 96.

3- المبحث الثاني: الإصلاح الفكري في الإسلام:

شهد العالم الإسلامي إلى حدود ق19 وضعا شبها بما شهدته أوربا قبل لحظة الإصلاح. وتضافرت عوامل داخليّة وخارجيّة أدّت إلى الشعور بالحاجة الملحّة إلى الإصلاح.

3-1- المطلب الأول: حاجة أهل الإسلام إلى الإصلاح:

تنوعت دواعي الحاجة إلى الإصلاح بين داخليّة وخارجيّة، وتعدّدت وجوهها بين فكريّة ودينيّة وسياسيّة. كما سنرى

3-1-1 أزمة فكر:

كانت الحالة الدّاخليّة للبلاد الإسلاميّة في مقتبل العصر الحديث قد بلغت منتهى السّوء، حيث استشرى الفساد وتفشّت الجهالة والأمّيّة بين المواطنين، وشابت عقائدهم أباطيل وخرافات ما أنزل الله بها من سلطان، واستحوذ الجمود على العلماء والمفكّرين أ، فسكنت موجات الحركة العلميّة وركدت، بل يمكن القول بأنّها شهدت شللاً رباعيًّا أشبه بالموت السّريري ليغيب الإبداع والتّجديد الفكريّ، وغرق المسلمون في مناقشة الجزئيّات، والعناية بالزخرف اللّفظيّ، فانتهى ذلك بالثقافة الإسلاميّة إلى الوقوع في غياهب التقليد. فما عادت المراكز الإسلاميّة تنهل من الينابيع الأصليّة للدّين، فتغذّي العقل والقلب والرّوح، بل اكتفت بالموروث الفقهي عند المتقدّمين القدامي. ولا استطاعت المراكز العلميّة أن تتخلّص من بوتقة الجمود، وتتحرّر لتجدّد في أساليب البحث ومناهج الدّراسة، وتنكبّ على الاتّصال بالعالم المتقدّم، لتطلّع على الجديد، وتكيّفه مع ما لها من تراثٍ دينيّ وثقافيّ فكريّ قويّ 2.

ففقد الدّين روحه وصار لا يعدو كونه مجرّد شعائر ظاهريّة لا تمسّ القلب، فولجت البدع العقائد، وسادت عادة التّوسّل بالأولياء، والتمسّح بالأضرحة والقبور، وانتشرت الخرافات من سحر وشعوذة، وشابت العقيدة الإسلاميّة شوائب عدّة لا يتسع المجال لذكرها على التّفصيل، فتطرّف بعض المسلمين حتى خرجوا عن جوهر العقيدة وارتدّ بعضهم إلى عبادة الأصنام وتقديس الأشخاص.

ظلّ الفكر العربي حبيس المقالات الدّينيّة واللّغويّة لأمد طويل، إذ خلف الرّعيل الأول من علماء الأمة خلفٌ أضاعوا العلوم، فكان أقصى ما يستطيع المثقّف أو المفكّر منهم هو أن يكتب شرح متن قديم أو حاشية على هذا الشّرح، أو أن ينظم أبياتا من الشّعر في مدح أحد الملوك أو السّلاطين.

وتجدر الإشارة إلى أنّ الجمود المعرفيّ الذي ابتليت به الأمة الإسلاميّة استتبعه إفلاس أخلاقيّ، حتى أضحت المبادئ الإسلاميّة السّامية ومكارم الأخلاق التي بعث محمد صلى الله عليه وسلم ليتّمها على شفا حفرة الانهيار بل على شفا حفرة من الاندثار، على نحو اختزله جمال الدين الأفغاني في مقولته الشّهيرة

2- بوبكر جيلاني، الحركة الإصلاحية الحديثة في العالم الإسلامي وموقف محمد إقبال منها، موقع رابطة العلماء السوريين، 6 مارس https://islamsyria.com/site/show_articles/9605.2017

¹⁻ الرافعي عبد الرحمان، جمال الدين الأفغاني، باعث نهضة الشرق، د ط، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، ص12.

"إن المسلمين قد سقطت هممهم، ونامت عزائمهم وماتت خواطرهم وقام شيء واحد فهم وهو شهواتهم." (الإحالة)

3-1-2 ساسة بلا مسؤولية:

وقد سيطر على العالم الإسلامي سياسيّا التّفكّك والتّخاذل والتّقهقر الحضاري، حيث كان السّاسة أبعد النّاس عن المسؤولية، وحرموا الأمّة حريّة القول والعمل. وكان الواحد منهم يحكم البلاد حكما مطلقا، يتولاّه بنفسه لتظلّ كل صغيرة وكبيرة من شؤون الحكومة رهن إشارته، بحيث كان يحقّ له أن يحاكي لويس الرّابع عشر ملك فرنسا في قوله "إنّما الدّولة أنا"1.

يلاحظ الباحث أنّ الضّعف الذي شهده العالم الإسلاميّ، والتّخلّف على المستوى الفكريّ، الدّيني والمعرفي، رافقته تجاذبات سياسيّة عويصة، فقد عُرفت السّلطة لقرون عديدة بالنّزاع المستمرّ، وكلّ فريق كان يتربّص الدّائرة بخصمه، والمصلحة العامة ضائعة بينهم، والحاكم لا يطيل المكث إلا ربثما يغتني، حتى أضحى اسم السّلطة مقرونا في المخيّلة الشّعبيّة بمعنى الظّلم والجور والاستبداد، وعند الحكام بخدمة المصالح وتوسيع النّفوذ.

3-1-3 عين المستعمر الغربي على العالم العربي:

بينما اجتاحت الغفلة الشّاملة والاستبداد السّياسي والتأخّر والجمود الفكريّ، العالم العربيّ والإسلاميّ في مقتبل العصر الحديث، كان العالم الغربيّ المعادي للإسلام والمسلمين يخوض غمار نهضة علميّة قويّة، تدفع به نحو التّطوّر الشّامل، والرّقي الماديّ الواضح، ليقف على القمّة متفاخرا بإنجازاته موجّها عدسته نحو العالم الشّرقي بعيون جشعة لا ترضى بغير التهامه بديلاً.

بل أنّ أوروبا أخذت تغشى الشّرق بحملاتها، فسقطت أقطاره الواحد تلو الآخر، ولم يمض غير يسير من الوقت، حتى كانت دول أوروبًا قد مدّت شراكها إلى أقطار العالم الإسلاميّ، فاستولت بربطانيا على الهند ومصر، وكانت الأفغان مسرحا للدّسائس، وعبرت روسيا القوقاز وبسطت سلطانها على أواسط آسيا².

كما غزت فرنسا شمال إفريقيا، واستولت على الجزائر، وقُضي على كيان الدّولة العثمانيّة، فلم تعد دولة إسلاميّة مستقلّة استقلالاً كاملاً، وتمّ بذلك إخضاع العالم الإسلاميّ والنيل منه.

واكتوى العالم الإسلاميّ بنار الاستعمار احتلالاً لأرضه واستغلالاً لخيراته وثرواته. وممّا زاد الأمر سوءا أنّ روحًا من الإعجاب بهؤلاء المحتلّين قد أخذت تسري بين الشّعوب الإسلاميّة. وأخذ جوّ من الشكّ يعمّ أنحاء الشّرق، وظهرت دعوة قويّة إلى اتّباع الغربيين، وتقليدهم في أساليب حياتهم، وكان هذا كلّه مؤديًّا، أو سيؤدّى لا محالة، إلى ضعف إيمان الشّرق بنفسه، وزعزعة ثقته بمبادئه وثقافته. وإذ كان الناس على

_

¹⁻ الرافعي عبد الرحمان، جمال الدين الأفغاني، باعث نهضة الشرق، مرجع سابق، ص20.

²⁻طارق عبد الحميد، حركات الإصلاح بين المسيحية والإسلام، رسالة لنيل درجة الماجستير، كلية الدعوة جامعة الأزهر، قسم الأديان والمذاهب، 1999، ص140.

دين ملوكهم، فإنّ غير واحد من حكام العرب في تلك الأزمنة كان قد استحسن الخضوع لملوك الغرب والتّودّد لهم 1.

ممّا بدا واضحا أنّ المستعمرين قد جلبوا معهم معتقداتهم وطقوسهم، ونقلوا علوم أممهم وحضاراتهم إلى الإسلام، فأخذت قوّة الإيمان تتزعزع في قلوب النّاس، وخلب بريق الحضارة المادية ومظاهرها أنظار الحيارى من أبناء العالم الإسلامي.

2-3- المطلب الثاني: نبذة عن أهم روّاد الإصلاح الفكري في الإسلام:

أمام هذه الأَوضاع المتدنية انبرت مجموعة من علماء الإسلام، وثارت على ما هو كائن داعية إلى العودة إلى المنابع الرّئيسيّة، وترك البدع والضّلالات المنافية للعقيدة الإسلاميّة.

2-3- جمال الدين الأفغاني:

ولد جمال الدّين الأفغاني سنة 1839م في بيت شرف وعلم بقرية "اسعد آباد" ببلاد "الأفغان"².

غادر قريته وهو في الثّامنة من عمره منتقلا إلى مدينة "كابل" عاصمة "أفغانستان"، حيث تلقّى العلم هناك، فأتمّ فيها حفظ القرآن الكريم، وتعلّم اللغة العربية وعلومها، ودرس علوم الشّريعة من تفسير وحديث وفقه، وأصول الفقه، والتاريخ والمنطق والفلسفة والرياضيات.

عايش جمال الدّين أشدّ أزمات العالم الإسلاميّ وجال في معظم القارّات، وتعرّف على العديد من الشعوب والبلدان، حيث عرف بسفره وترحاله في الدّول الإسلاميّة والشرقيّة والغربيّة، فقد سافر إلى الهند، ومكة، ومصر، والسودان، والعراق، وإيران، وتركيا، وألمانيا، وروسيا، ولندن، وباريس³.

ومن خلال رحلاته في الدّول الإسلاميّة، ضاق صدره بما شاهده من تمزّق للمسلمين واختلافهم وجهلهم بدينهم، وإقبالهم على الخرافات، ورضاهم بالخنوع والهوان. وازداد غضبه لمّا شاهد حكّام المسلمين لا يقيمون وزنا لواجباتهم نحو شعوبهم، فكان همّهم هو سلب الشّعب وحرمانه من كل الحرّيّات وأسباب الصية.

وأخذ النّضج السّياسي لجمال الدّين الأفغاني يتكوّن حوالي منتصف القرن التّاسع عشر، وكان لحالة الشّرق وقتئذ أثرها في هذا التّكوين، حيث كان الاستعمار الغربي في عنفوانه وجبروته، وبريطانيا تدبّر المكائد لبلاد الأفغان، بلاد جمال الدّين، وتعمل على احتلالها وضمّها إلى مستعمراتها وتنصيب الأعوان والعملاء فيها.

¹⁻ محمد ضياء الدين الريس، تباشير النهضة في العالم الإسلامي، ط3، دار الأنصار، مصر، 1980، ص143.

²⁻ جرجي زيدان، تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر، ج2، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ص413.

³⁻ طارق عبد الحميد، حركات الإصلاح بين المسيحية والإسلام، مرجع سابق، ص136.

⁴⁻ كابان عبد الكريم على، الإصلاح الديني في المسيحية مقارنة بالإصلاح الفكري في الإسلام، مرجع سابق، ص123.

ما يمكن قوله، أنّ الأفغاني شاهد ودرس واطّلع بنفسه على حقائق الأمور، وشعر بمدى الخطر الذي يحدّق بالمسلمين من الدّاخل والخارج على حد السواء فهبّ ينادي بالإصلاح، حيث دفعه حبّه للوطن وحماسته للدّين إلى حثّ المسلمين على الوحدة، ودعوة الحكام إلى العدل والإحسان.

توفّي جمال الدّين الأفغانيّ في مارس 1897م بتركيا، وظل قبره هناك إلى أن نقل رفاته إلى أفغانستان سنة 1944م¹.

أمّا عن فكره، فقد كان الأفغاني على يقين من أنّ الأمة ما عزّت يوما إلا بالإسلام، وحين تحقّق أعداؤها من ذلك سعوا إلى إفساد عقيدة المسلمين زارعين بينهم أفكارا غريبة. لذلك سعى جاهدا إلى نشر الدّعوة عبر العودة بالعقيدة إلى ما كانت عليه في عصورها الأولى، والاستناد على الكتاب والسنة، واستئصال ما رسخ في عقول العامّة من خرافات وضلالات.

ونادى الأفغاني كذلك بفتح باب الاجتهاد ونبذ التّعصب، كما عرف بنفوره من التّقليد والجمود. فكان يأخذ بالأحسن والأيسر من الأقوال، ويجتهد للأولى ويردّ الضّعيف منها، ويتناول الأقرب للصّواب، وما يقبله العقل الصّريح ويتفّق مع النّقل الصّحيح².

كما دعا مصلح آباد إلى ضرورة انضواء الدّول الإسلاميّة تحت لواء جامعة إسلاميّة واحدة، وجعلها من سبل مقاومة الطّغيان والتّدخّلات الأجنبيّة، وطالب بإصلاح سياسي يكرّس مبدأ الشّورى، ويقول في هذا الصدد "إنّ القوّة النيابيّة لأيّ أمّة لا تكون لها قيمة حقيقيّة إلاّ إذا نبعت من نفس الأمة، وأيّ مجلس نيابيّ يأمر بتشكيله ملك أو أمير، أو قوّة أجنبيّة محرّكة له فهو مجلس موهوم موقوف على إرادة من أحدثه".

عموما، يعتبر جمال الدّين الباتّ الأوّل للرّوح العصريّة في الإسلام، وهو رائد حركة التّجديد الدّيني، وكانت مجلّة "العروة الوثقى" التي أسّسها رفقة تلميذه محمّد عبده هي مجال نشر أفكاره.

:محمد عبده

ولد الشيخ محمد عبده في قرية "محلة نصل" المصرية سنة 1849م في أسرة تعتز بكثرة رجالها، ومقاومتهم لظلم الحكّام وتحملهم في سبيل ذلك العديد من التضحيات، هجرة وسجنا وتشريدا 4.

تلقّى تعليمه الأوّلي للقراءة والكتابة وحفظ القرآن بالقرية، وبدأ ذلك وهو في سن السّابعة من عمره، ثم ذهب إلى الجامع الأحمدي بـ "طنطا" لتجويد القرآن ودراسة العلوم الشرعيّة، قبل أن يلتحق بجامع الأزهر أين التقى بجمال الدّين الأفغاني ليتأثّر به، ويدرس على يديه التّفسير وأصول التّصوّف والمنطق

¹⁻ الرافعي عبد الرحمان، جمال الدين الأفغاني، باعث نهضة الشرق، مرجع سابق ص143.

²⁻ طارق عبد الحميد، حركات الإصلاح بين المسيحية والإسلام، مرجع سابق، ص145.

³⁻ كابان عبد الكريم، الإصلاح الديني في المسيحية مقارنة بالإصلاح الفكري في الإسلام، مرجع سابق، ص135.

⁴⁻ محمد عمارة، المنهج الإصلاحي للإمام محمد عبده، مكتبة الإسكندرية، 2005، ص12.

والفلسفة والتوحيد. كما أرشده الأفغاني إلى الإنشاء وكتابة المقالات الأدبيّة والاجتماعيّة والسياسيّة، ومرّنه على الخطابة حتى برع فيها.

وفي سنة 1882م نُفي محمد عبده إلى بيروت، ومن هناك دعاه أستاذه جمال الدّين الأفغاني ليحضر إلى باريس، حيث قاما معًا بإصدار جريدة العروة الوُثقى¹.

وكان المصلح المصريّ قد عاصر، هو الآخر، ما ساد المجتمعات الإسلاميّة من شوائب وخرافات وبدع كبّلت المسلمين، وعاين جور الحكّام واستبدادهم، فاستعصت عليه الاستكانة إلى تلك الأوضاع، وأسّس حركته الإصلاحيّة، وتبنّى قضايا الأمّة لسنوات عديدة، إلى أن توفي بالإسكندرية في صائفة 1905 م.

أما عن فكره، فقد فهم الدّين على طريقة السّلف، وأرجع ضعف المسلمين إلى الجهل بأصول العقيدة، واعتبر أنّ إصلاح أحوال المسلمين من الداخل، هو الوسيلة لمناهضة الاستعمار. فانصرف إلى إصلاح العقيدة والمؤسسات الإسلامية كالأزهر والأوقاف والمحاكم الشرعية.

ونظرا لأهميّة التّعليم في مشروعه اعتبر صلاح الأزهر بمثابة إصلاح لأحوال المسلمين عامة.

كما رفض التّعصّب الدّيني فهاجم الغلو السّلفي للوهّابيّة على الرغم من عدّه إيّاها من حركات الإصلاح، وبقول في هذا الصدد: "لقد قام الوهابية للإصلاح، ومذهبهم حسن، لولا الغلو والإفراط"².

وعموما، يعتبر محمد عبده رجل دين وعلم بلغت أفكاره مسامع المسلمين في كلّ مكان، وكانت حركته الإصلاحيّة امتدادًا لجوهر حركة الأفغاني لاتّفاقهما على الأسس والمبادئ.

3-2-3 محمد رشید رضا:

ولد محمد رشيد رضا في 23 سبتمبر 1869م في قرية "القلمون" اللبنانية، التي بدأ فها تعلّمه للقراءة والكتابة، وحفظ القرآن قبل أن يسافر إلى مدينة طرابلس حيث دخل إلى المدرسة الوطنيّة الإسلاميّة، وتوسّع في دراسة العلوم العربيّة والشّرعيّة ودرس المنطق والخطّ وقواعد الحساب³

وبعد زمن من طلب العلم، وجدّه في تحصيله، وقع بين يديه عددان من مجلة العروة الوثقى التي كان يصدرها الأفغاني ومحمد عبده، فكان شديد الانجذاب إلى مواضيعها التي أحدثت في نفسه ميلا إلى لقاء مؤسّسها، وكانت له حافزا على السّفر إلى مصر حيث التقى بمحمد عبده 4.

وكان هذا اللقاء نقطة تحوّل في حياة محمد رشيد رضا، وتكوينه كمصلح، فقد استفاد من علم محمّد وحكمته، كما عهد إليه الأستاذ الإمام مهمّة تأسيس "مجلة المنار" والتي غدت بمنزلة لسان حال التّيار التجديدي حيث عملت على تنوير الفكر الإسلامي.

¹⁻ كابان عبد الكريم على، الإصلاح الديني في المسيحية مقارنة بالإصلاح الفكري في الإسلام، مرجع سابق، ص137.

²⁻ محمد عمارة، المنهج الإصلاحي للإمام محمد عبده، مرجع سابق، ص66.

³⁻ خالد بن فوزي بن عبد الحميد، محمد رشيد رضا، طود وإصلاح دعوة وداعية، دار علماء السلف، الإسكندرية، ط2، ص12.

⁴⁻ كابان عبد الكريم على، الإصلاح الديني في المسيحية مقارنة بالإصلاح الفكري في الإسلام، مرجع سابق ص139.

وقد برز رشيد رضا في زمن تضاءلت فيه مساحة الحقّ خلف ركام الضّعف والجهل والاستبداد، وأضحت مفردات كثيرة من محاسن القيم الفاضلة كالحربّة والعدالة والعلم والحضارة، وحمل أمانة الخير إلى هذه البشربة، التي خفت بربقها في ذاكرة الوعى العام. وكانت فيه الدفعة الحيوبة الهائلة، وشريعة التّوحيد الخالصة المستمدّة أساسا من النّص الشّرعي الثابت، قد شابها لبس كثير، الأمر الذي حفّز الشيخ رضا على أن يسخّر نفسه للعمل الإصلاحي بغية تصحيح المسار الديني والسياسي والفكري للعام العربي.

توفي محمد رشيد رضا سنة 1935م في مصر ودفن بجوار قبر محمد عبده 1.

أما عمله الإصلاحي والتّجديدي، فقد كان متمّما لفكر أستاذه الشيخ محمد عبده، وقد وروّج أفكاره الإصلاحية عبر أعداد مجلة المنار التي وضّح فيها معالم الإصلاح الإسلامي الحق وشرح أهدافه، وذاد عن الدعوة من كيد أعدائها، وقاوم البدع والضلالات وحارب التعصّب للمذاهب داعيا للتسامح والتآلف بين المذاهب الإسلامية. كما جاهد من أجل إحياء الإسلام في مواجهة التّحدّي الذي تمثّله الحداثة الغربية، كما كان يمقت في العلماء المحافظين عجزهم عن استنباط نظام قانوني عسكري اقتصادي وسياسي من فقههم التّقليدي، واقتصارهم على النّقاش العقيم حول مطارحات بعيدة كل البعد عن واقع المسلمين.

أما على الصعيد السّياسي فلم يترك رشيد رضا قضيّة من قضايا الأمة إلا وتناولها بالدرس فكشف مخططات الإنجليز كما كتب عن الاستعمار الإيطالي والفرنسي والحركة الصهيونية. وفي خطب حماسية كان يوضِّح المخاطر التي تحيط بالعالم الإسلامي في خضم جور الحكام وتربّص الأعداء...زبادة على مشاركاته العديدة في الجمعيّات والأحزاب السياسية على غرار جمعيّة الشّورى العثمانيّة وحزب الاتحاد السّوريّ².

3-3- المطلب الثالث: أثر حركة الإصلاح الفكرى على العالم الإسلامي

ساهمت الحركة الإصلاحيّة في الحفاظ على عقيدة الإسلام، وتخليصها من كلّ فكر بشريّ دخيل في زمن كثرت فيه البدع والأباطيل. حيث حرص القادة على التّروبج للإسلام الوسطيّ، المعتدل الكامل والتّام، الذي هو نبراس يهتدي به السّالك لطريق الإيمان في كلّ مكان وزمان.

كما أنّ الحركة وقفت بالمرصاد لمحاولات تشويه الإسلام، وتصدّت لكتابات أشياع المستشرقين ومَنْ والأَهُمْ، فكان موقف الأفغاني واضحًا من "الدّهريين" الذين لبسوا ثوب الإسلام وراحوا يطعنون فيه من الخلف. وأنكر محمد رشيد رضا على بعض الطَّرق الصّوفيّة احتفالاتهم البدعيّة وما يسودها من مخالفات شرعيّة³.

¹⁻ المرجع نفسه، ص140.

²⁻ مشاري سعيد المطرقي، آراء محمد رشيد رضا العقائدية في أشراط الساعة الكبرى وآثارها الفكرية، ط1، مكتبة الإمام الذهبي، الكويت، 2014، ص57.

³⁻ محمد رشيد رضا، المنار والأزهر، ط2، م1، دار المنار، القاهرة، 1935م، ص175.

كما أنّ التيّار الإصلاحيّ والحماسة الإسلاميّة التي برزت بقوّة، بفعل مجهود جمال الدّين الأفغاني ومن تلاه وسار على نهجه، أفرزت اتّجاهًا فكريًّا انتهج أسلوب مقاومة الاستعمار ومحاربته في جميع مظاهره الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، فأضحت مهمّة الاستعمار صعبة رغم كثرة الوسائل الإجرامية المستعملة وتنوّعها، والأساليب المتّبعة لتثبيت كيانه عسكريًّا وثقافيًّا.

وصفوة القول أنّ أثر تلك الحركات لم يقتصر على الصّعيد الديني، بل امتدّ ليشمل المجال الفكريّ، والاجتماعيّ والسياسيّ والاقتصاديّ. إذ أنّ طريق الإصلاح الشامل يبدأ بالذّود عن العقيدة التي إذا صلحت وسلمت في أمة كانت سببا لصلاح الدّنيا وسلامة المجتمعات.

4- خلاصة وآفاق:

نخلص مما تقدّم إلى الاستنتاجات والملاحظات الآتية:

- عرفت أوروبا في عصورها الوسطى أقصى درجات التّخلف والانحطاط في شتّى المجالات، حيث كانت الكنيسة الكاثوليكيّة أكثر العناصر المساهمة في ذلك التّخلّف، لما انتهجه رجالها من سياسات قمعيّة مستبدّة مارستها على الشّعوب والحكّام، فلم تترك مجالاً واحدًا إلاّ وأفسدته.
- إنّ ولادة حركة الإصلاح البروتستاني شكّلت منعطفا هامّا في تاريخ أوروبّا، فقد نجحت في تعميم فكرة الإصلاح في جملة من البلدان، ووضعت أسس الانفصال عن الكنيسة الكاثوليكيّة وتمكّنت في المقابل من إنشاء جملة من الكنائس الوطنيّة الإنجيليّة في الكثير من الأرجاء الأوروبيّة.
 - إنّ المستفيد الأكبر من حركات الإصلاح المسيحيّة، هم الحكّام والملوك.
- نبذ روّاد الإصلاح الفكريّ في الإسلام التّقيّد بالمذهبيّة والطائفية، ودعوا إلى إنشاء جامعة إسلاميّة واحدة في صف واحد متراصّ.
- طالب قادة التّجديد الإسلامي بالانفتاح والاجتهاد نظرا إلى ما يميّز الدّين الإسلامي من مرونة تجعل منه صالحا لكلّ زمان ومكان.
 - تأكيدهم على ضرورة مسايرة الحضارة مع مراعاة خصوصيّات الدّين الإسلاميّ.



المراجع

- 1- إيليربي (هيلين)، الجانب المظلم في التاريخ المسيعي، ت: سهيل زكار، دط دار قتيبة، 2005.
- 2- جفري (برون)، تاريخ أوروبا الحديث، ت: على المرزوقي، ط1، الأهلية للنشر والتوزيع، 2006.
- 3- جيلاني، (أبو بكر)؛ الحركة الإصلاحية الحديثة في العالم الإسلامي وموقف محمد إقبال منها، موقع رابطة العلماء السوريين، 6 مارس 2017. https://islamsyria.com/site/show_articles/9605
 - 4- أبو حطب (محمد خالد)، مارتن لوثر والإسلام، ط1، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، 2008.
 - 5- دوبينياه (ميرل)؛ تاريخ الإصلاح في القرن السادس عشر، مج 1، بيروت،1878.
 - 6- رسل (بيرتراند): حكمة الغرب، ج2، ت: فؤاد زكريا، دط، عالم المعرفة، الكويت،1983.
 - 7- رضا (محمد رشيد) "المنار والأزهر"، ط2، م1، دار المنار، القاهرة، 1935م.
- 8- رافعي (عبد الرحمان): جمال الدين الأفغاني، باعث نهضة الشرق، دط، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، لبنان، 1961.
 - 9- الريس (محمد ضياء الدين)، تباشير النهضة في العالم الإسلامي، ط3، دار الأنصار، مصر، 1960.
- 10- زيدان (جرجي)، تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر، ج2، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، دت.
- 11- الشريف (ربحينا): الصهيونية غير الهودية، جذورها في التاريخ الغربي، ت: أحمد عبد الله عبد العزيز، عالم المعرفة، 1985
 - 12- شلبي (رؤوف): أضواء على المسيحية، د.ط، المكتبة العصرية، 1975.
- 13- عبد الحميد (طارق): حركات الإصلاح بين المسيحية والإسلام، رسالة لنيل درجة الماجيستير، كلية الدعوة جامعة الأزهر، قسم الأديان والمذاهب،1999.
 - 14- عزت (زكي)، تاريخ المسيحية في عصر الإصلاح، دط، دار الجيل للطباعة، مصر، دت.
- 15- على (كابان عبد الكريم)؛ الإصلاح الديني في المسيحية مقارنة بالإصلاح الفكري في الإسلام، ط1، دار دحلة، 2010.
 - 16- عمارة (محمد)، المنهج الإصلاحي للإمام محمد عبده، مكتبة الإسكندرية، 2005
- 17- عيسى (ذياب)، مدخل إلى تاريخ الكنائس الإنجيلية ولهوتها، ط1، مدرسة اللاهوت المعمدانية العربية، لبنان، 2009.
 - 18-فارس (فايز)، أضواء على الإصلاح الإنجيلي، ط1، دار الثقافة المسيحية، دت،
- 19- ابن فوزي (خالد بن عبد الحميد)، محمد رشيد رضا، طود وإصلاح دعوة وداعية، ط2، دار علماء السلف، مصر،1994.
 - 20- الكتاب المقدس.

- 21- لوثر (مارتن)، أصول التعليم المسيعي، المركز اللوثري للخدمات الدينية في الشرق الأوسط، بيروت لبنان، 1983.
 - 22- لومير (جون): تاريخ الكنيسة ج 4، ت: عزرا مرجان، ط1، دار الثقافة، القاهرة-مصر.
- 23- مشاري (سعيد المطرقي)، آراء محمد رشيد رضا العقائدية في أشراط الساعة الكبرى وآثارها الفكرية، ط1، مكتبة الإمام الذهبي، الكونت، 2014.
- 24- مينوا (جورج)، الكنيسة والعلم: تاريخ الصراع بين العقل الديني والعقل العلمي، ت: موريس جلال، ط 1، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، سوريا، 2005.
- 25- الوائلي (عامر عبد زيد) الإصلاح الديني، قراءة المفهوم في التجربة المسيحية الغربية، ط1، المركز الإسلامي للدراسات الإستراتيجية، 2018.
 - 26- وبل (ديورانت)، قصة الحضارة، ت: محمد بدران، ط1، دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع، 1988.
- 27- ويلز (هربرت جورج)، معالم تاريخ الانسانية م 3 ت: جاويد عبد العزيز توفيق، ط3، لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1975.
- 28- هونكة (زيغريد)، شمس العرب تسطع على الغرب، ت: فاروق بيضون وكمال دسوقي، ط8، دار الجيل بيروت، لبنان. 1993.
- 29- هوايت(إلن)، الصراع العظيم، ت: إسحاق فرج، ط3، دار الشرق الأوسط للطباعة والنشر، لبنان،1997.
- 30- Aimé Humber; Ulrich Zwingli Et Son Époque, Lausanne, imprimerie et librairie de Marc Ducloux.
- 31- F. Paux: la vie de Calvin, Bibliothèque cantonale et universitaire de Lausanne, 1960.
- 32- George Tourn, Jean Calvin, Le réformateur de Genève, traduit par Jacques Lasserre, édition.